



# نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري

تأليف: زكي مبارك

ترجمة: إبراهيم عوض

1019



نظرة على فن الكتابة عند العرب  
في القرن الثالث الهجري

**المشروع القومى للترجمة  
إشراف : جابر عصفور**

- العدد : ١٠١٩

- نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري

- زكي مبارك

- إبراهيم عوض

- الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م

**هذه ترجمة كتاب :**

**Considération Sur l'Art d'écrire chez les Arabes**

**au III<sup>e</sup> siècle de l'Hégire**

**de Zaki Mubarak**

---

**حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة المجلس الأعلى للثقافة  
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤**

**El., Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.**

**Tel. : 7352396 Fax : 7358084.**

المشروع القومى للترجمة

# نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري

تأليف : زكي مبارك  
ترجمة : إبراهيم عوض



## **بطاقة الفهرسة**

**إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية**

**ادارة الشئون الفنية**

**مبarak ، زكي**

**نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري /**

**تأليف زكي مبارك ؛ ترجمة إبراهيم عوض . - ط ١ . -**

**القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦**

**ص ٢٠ ، ٢٠ سم .**

**(١) الكتابة - (أ) العنوان .**

**رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٦٠٤٨**

**I.S.B.N. 977 - 305 - 991 - X**

**طبع بالهيئة العامة لشئون المطبع الأميرية**

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اتجهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

## تقديم

### بين يدى الترجمة

فى الصفحات التالية ترجمة للبحث التمهيدى الذى قدمه الدكتور زکى مبارك لجامعة باريس بين يدى رسالته : " La Prose Arabe du IV<sup>e</sup> Siècle de L' Hégire" المعروفة فى طبعتها العربية بكتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع" ، وهى الرسالة التى أحرز بها درجة الدكتوراه من تلك الجامعة سنة ١٩٣١ م ، وهذه أول مرة يظهر فيها ذلك البحث فى ثوب عربى .

وكلت قد حصلت على النص الفرنسي من السيدة كريمة مبارك (كريمة المرحوم زکى مبارك) منذ ثلاثة سنوات ، فبدأت فى الحال ترجمته دون أن يكون هناك تخطيط مسبق ، بل جاء الأمر عفو الخاطر حبًا فى الدكتور زکى ورغبة فى أن يكون هذا البحث النفيس بين يدى الباحثين العرب ، الذين كانوا يعرفون أن له رسالة صافية فى فن الكتابة النثرية العربية فى القرن الثالث الهجرى ، لكن دون أن تكون لديهم فكرة عما أودعه هذه الرسالة .

وقد ظهر هذا البحث في مقدمة تحقيق زكي مبارك لرسالة إبراهيم ابن المديّر الكاتب العباسى المعروفة بـ "الرسالة العذراء" ، وهى الرسالة التى حققها د. زكي مبارك خلال دراسته فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ونشرتها له دار الكتب عام ١٩٣١م بعد عودته من العاصمة الفرنسية. ويخبرنا ، رحمة الله ، فى الكلمة الوجيزة التى قدم بها تلك الرسالة أنه قد أجرى على البحث المذكور بعض التعديلات فى ضوء الملاحظات التى أبدأها مناقشوه أثناء امتحانه فى جامعة باريس .

ويدور الكلام فى البحث الذى بين أيدينا حول رسالة ابن المديّر وموضوعاتها وأهميتها التاريخية والفنية ، وهى الرسالة التى خصصها مؤلفها لما يجب على كتاب الدواوين مراعاته فى تحبيرهم لرسائلهم الرسمية من تقاليد شكلية ومضمونية ، ثم يتشعب القول هنا وهنها فى المقارنة بين ما ورد فى تلك الرسالة وما ورد فى المؤلفات المشابهة لها مثل "كتاب الكتاب" لابن درستويه و "أدب الكتاب" للصُّولى و "الصناعتين" لأبي هلال العسكري ، كل ذلك فى تحليل دقيق وعبارة فرنسية تجمع بين السلasse والرشاقة والوضوح مما يدل على تمكّن المؤلف من موضوعه فكرة وأسلوباً رغم أن اللغة التى أفرغ فيها فكرته ليست لغته الأم . لكن ليس فى هذا أدنى غرابة ، فنحن هنا مع الدكتور مبارك ، وحين يكون القارئ مع زكي مبارك فهو دائمًا فى أيدٍ أمينة .

إبراهيم عوض

(١)

الرسالة التي أقدمهااليوم إلى مدرسة اللغات الشرقية بباريس سبق أن نُشرت في عام ١٩١٢م للمرة الأولى في القاهرة ضمن مجموعة من الرسائل المهمة تحت إشراف الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف العمومية في سوريا ، الذي ذكر لنا أنه وقع على مخطوطة قديمة لها في مكتبة الشيخ طاهر الجزائري ، وكان مُعتمدًا في طبعها على تلك المخطوطة وحدها لعدم عثوره على آية نسخة من مخطوطة أخرى . ولهذه الرسالة أهمية بالغة ، ومع ذلك فلا أحد ، في حدود علمي ، قد اهتم بها بعد طبعها ولا حتى العالم الذي نشرها ، إذ لم يحدث أن علق عليها بشيء . كذلك فإن مؤرخي الأدب العربي في مصر قد تركوا هذا الأمر يمر دون أن يشيروا إليه ، بل لم يفكر أى منهم في الإفاداة من تلك الوثيقة لوضع دراسة عن فن الكتابة .

ورداً على خطاب بعثت به إلى الأستاذ كرد على أسأله عما إذا كان قد عثر بعد طبع الرسالة على مخطوطة أخرى ، أو وضع يده على آية معلومات تتعلق بها أو صحيحة بعض ما فيها من أخطاء النسخ وتحريفاته ، كان جواب الأستاذ الفاضل أنه لم يكتشف حتى الآن آية مخطوطة

آخرى للرسالة ، وذلك راجع ، دون ريب ، إلى أن أهل البلد <sup>أَبْيَعُ</sup> من إخوة يوسف " ، وأن هناك بالتأكيد أخطاء وتحريفات في النص الذى طبعه كما هو الشأن دائمًا مع المخطوطات القديمة إذا لم يسعدها الحظ بأن ينسخها أحد العلماء أو يقوم بتصحيحها أليب يضارع في العلم مؤلفها نفسه .

وعلى هذا فقد قمت بنفسي بدراسة الرسالة بغاية الانتباه واستطعت اكتشاف عدد من الأخطاء فيها ، ثم تابعت قراءتها كلمة كلمة مع الأستاذ مرسىه ، الذى ساعدنى على توضيح بعض غواضها . ولست أظن أننى أعطى لنفسى أكثر من حقها إذا ما اعتقدت أن هذه الجهد قد مكنتنى من تقديم نص <sup>أفضل</sup> إلى مدرسة اللغات الشرقية بباريس . ولقد كان من الأفضل لى أن أكتب هذه الدراسة بلغتى الأم ، <sup>بِيَدِ</sup> أن المسيو مرسىه أقنعني بالعدول عن ذلك ، إذ كان رأيه ، ومعه الحق دونما شك ، أنه لا بد من التفكير فى أولئك القراء الذين ليس من اليسير عليهم قراءة نص عربى فى لغته الأصلية ، ومن ثم فلا بد من كتابته بالفرنسية .

ولسوف أعرض هنا الأفكار الأساسية في الرسالة وأقارن بينها وبين الأفكار التي كتبها في الفترة ذاتها كل من الجاحظ والصولي وابن درستويه<sup>(\*)</sup> وابن عبد ربه في الموضوع نفسه <sup>(١)</sup> . وتكمّن أهمية هذا

(\*) يكتب زكي مبارك هذا الاسم بالحروف اللاتينية دائمًا هكذا : "Ibn-Durustuyah" المترجم .

(١) قد يبدو أنه كان ينبغي ذكر ابن قتيبة هنا أولاً ، إذ يدور كتابه المسمى "أدب الكاتب" حول فن الكتابة ، إلا أنه في الواقع الأمر يختص بعلم اللغة لا بالبلاغة . ومع ذلك فقد تناولنا هذا الكتاب بملحوظاتنا ضمن تحقيق "الرسالة العذراء" كلما وجدنا ذلك نافعاً لعملنا .

البحث في تصويره لطبيعة الحركة الأدبية والنظريات التي كانت توجه  
فن الكتابة في القرن الثالث الهجري ، وهو ما يجعل منه على نحوٍ ما  
مقدمة لرسالتى عن "النثر الفنى في القرن الرابع" .

(٢)

وكان إبراهيم بن المدبر صاحبُ "الرسالة العذراء" كاتباً وشاعراً  
معاً ، وكانت وفاته في بغداد عام ٢٧٩ هـ ، فهو إذن من أبناء القرن  
الثالث الهجرى . وبعد تقلبه في عدة مناصب رفيعة وزرَّ للمعتمد ، حيث  
كان يحيط به أمثاله من الشعراء والأدباء ممن يقصصونه في حاجاتهم .  
ويجد القارئ في كتب الأدب نوادر لطيفة تدور حول هذا الموضوع ، ومن  
ذلك أن الشاعر العطوى أتاه ذات يوم في أمرٍ ما ، إلا أن الحاجب لم  
يأذن له بالدخول ، فما كان منه إلا أن عاد أدراجه ونظم من فوره  
البيتين التاليين :

أتيتك مشتاقاً فلم أر جالساً      ولا ناظراً إلا بوجهه قطُوب  
كأنى غريمٌ مقتضٌ أو كأنى      نهوض حبيب أو حضور رقيب  
وبعث بهما إلى ابن المدبر<sup>(١)</sup> . كما دخل أبو العيناء إلى عبيد الله  
ابن سليمان فشكَا إليه حاله ، فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن

---

(١) ياقوت / ٢٩٢ / ١

المدبر ؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصر من همته طول الفقر وذل الأسر ومعاناة محن الدهر فأخفقته في طلبتي ، فقال : أنت اخترته . قال : وما على ، أعز الله الأمير ، في ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فيما كان منهم رشيد<sup>(١)</sup> ، واختار النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدًا ، واختار على بن أبي طالب أبا موسى الأشعري حاكماً له فحكم عليه<sup>(٢)</sup> . والواقع أن الأسر الذي أشار إليه أبو العينا بخصوص ابن المدبر هو أسرٌ حقيقي ، فقد جلسه الزنج في البصرة ، فاحتال حتى نقب السجن وهرب ، ونظم البحترى في ذلك قصيدة جميلة<sup>(٣)</sup> .

ويجد الباحث المعلومات التي تتعلق بابن المدبر مبعثرة هنا وهناك في المظان المختلفة<sup>(٤)</sup> ، ويعود جزء من شهرته إلى حبه لغريب المغنية الجميلة ، كما كان صديقاً حميمًا للجاحظ ، وكم من ليلة حلوة سهرها

(١) يشير إلى قوله تعالى في الآية ١٥٤ من سورة "الأعراف" : "واختار موسى قومه سبعين رجلاً ، فكانوا كلهم حمقى" .

(٢) زهر الأدب / ١ / ٢٥٦ . وقد كان ابن أبي سرح أولًا كاتباً للنبي عليه السلام ، إلا أنه ارتد ورجع مشركاً .

(٣) المرجع السابق / ١ / ٢٥٧

(٤) توجد ترجمته في المجلد التاسع عشر من «الأغانى» ، وانظر كذلك ١٨٨/١٨ ، ٣٤، ٥٩ ، و ٢٠/٢٠ ، ٢٦، ٢٥/٦ ، ١٧٥ ، ١٥/١٥ ، ٩٢، ٩٠، ١٢/١١ ، ٢٠٠ ، ٢٦/٩ ، ٢٩، ١٠٨ ، ٢٩ ، ٢٦/٩ ، ١٠٩ ، ويمكن الرجوع أيضاً إلى ياقوت ١٥٥/٢ ، ١٥٥ ، ٤٠٩ ، ٦٥ ، ٩١/٦ ، ٩٤ ، ٩٣/٢ ، وإلى «مسالك الأبصار» ١/٢٢٠ ، و«نشوار المحاضر» ١/١٢١ ، وأخيراً «زهر الأدب» ١/١١٣ ، ١٤٠ .

معاً . وأحسب أن هذا الود العظيم بينهما هو أحد الأسباب التي حفظت ابن المدبر على وضع رسالته عن فن الكتابة ، ذلك أنني لم أقرأ في أي مرجع أنه كان مهتماً ، بوجه خاص ، بهذا اللون من الدراسة . ورغم هذا فقد قرأت عند الصولي عبارة تبدو وكأنها تشير إلى أن ابن المدبر كان يتمتع بالمقدرة على نقد الكلام ، وهذه العبارة تكاد تتطابق مع عبارة في «الرسالة العذراء» تتعلق بقولهم : «جُعِلْتُ فِدَاكَ» ، وهو وحده كافٍ في تأكيد نسبة الرسالة لابن المدبر <sup>(١)</sup> .

والبلاغة في هذه الرسالة غير البلاغة التي نحا الناس إليها من بعد ، فالأسلوب أكثر صراحة وأقصد إلى الغاية منه عند الجاحظ ذاته ، كما أن النفس أكثر حرارة ، والكلام فيها موجه إلى كتاب الدواوين كاتمِي أسرار الملوك والخلفاء ، وبعض الفقرات في الواقع أصيلة تامة الأصلية وتبُّرِّز ما للكتاب النثرية من قيمة وأهمية ، وكذلك ما يتمتع به الكاتب من تأثير ونفوذ بفضل ما حباه الله من موهبة .

والرسالة في مجموعها عمل ممتاز ، وقد نعتها صاحبها بـ «العذراء» لاعتقاده أن أحداً لم يسبقها إلى معالجة المسائل التي تشتمل عليها ، وإن كان الجاحظ ، في الحقيقة ، قد تناول بعضها من تلك المسائل . بيد أن لهذا العنوان ، بوجه عام ، ما يبرره ، فهي فعلًا «رسالة عذراء» .

---

(١) أدب الكتاب / ١٥٤ .

ويعلق ابن المدبر أهمية كبرى على «الشكل» ، ومن رأيه أن الألفاظ ينبغي أن يتم انتقاها طبقاً لحال المخاطب وذوقه ومستواه الثقافي ، وهو ما يعتمد بدوره على الرسوم المتبعة في الأوساط الاجتماعية المختلفة . وفي رأيه أيضاً أنه لا بد من تجنب العبارات التي لها مع ذلك معانٍ دقيقة محددة إذا لم تكن هي العبارات التي تجري بها العادة في أوساط المخاطبين . وفيما عدا هذا ينبغي أن يتم اختيار الألفاظ جميعها بناءً على وضوح معناها وجزالتها . كذلك فإن موضعها من الجملة أهمية كبيرة . ومن ثم لا ينبغي أن تكون قلقة في مكانها ، فإن الألفاظ كالتطريز الذي يراد به تزيين الثوب ، إذ لا بد أن تسجم كل تفصيلة فيه مع أخواتها ، وكما ذكر فقد شبهت الحكمة المعاني بالغوانى ، والألفاظ بالمعارض التي تكسوهن .

ومن ناحية أخرى فإن الكاتب لا يجد صعوبة في العثور على اللفظ الذي يريد ، إنما المشكلة في النظم والتأليف . وما عليك إلا أن تتضع اللآلئ بين يدي الجوهري ، ولسوف تجد أن الصعوبة هي تأليفها في عقد منظوم . وعلى سبيل المثال فالياقوت في ذاته حسن ، لكنه في جيد الحسنة أحسن . وبالمثل إذا أراد الكاتب أن ينتاج شيئاً جميلاً فعليه أولاً أن يجد موضوعاً جميلاً . كذلك لا بد له أن يكون دقيقاً وحكيماً ، فإن الدقة روح الأدب ، والكاتب الذي يأخذ الأمور بخفة لن يحصل على أية ثمرة ، ثم إن الحكمة تتطلب نفوساً دقيقة منصفة .

وعلى الكاتب أن يختلف إلى العلماء ورجال الأدب ، وأن يهتم بتصفح رسائل المتقدمين والمتاخرين والنقوذ إلى لبّها ، وأن يحفظ من الأشعار والأخبار والسير ما يَعْذُب به لسانه ويطول به قلمه . وبالمثل عليه أن يدرس خطب العرب ومحاوراتهم ، وأن يتعلم المنطق وأدب الفُرس وأمثالهم ، وأن يعرف أيضًا أدابهم في السلوك ومكايدهم في الحرب ، فضلاً عن النحو والصرف واللغة والعروض .

ومن ناحية المظهر يُسْتَحْسِن أن يكون طويل القامة ، متناسق الأجزاء ، رقيق حواشى اللسان ، مليح الزي ، بهيّ الملبس ، وأن يكون كذلك خفيف الروح ، صحيح القرية ، محنكًا بالتجربة .

ومن صفات الكاتب الموفق أن يكون على معرفة تامة بجميع الطبقات ، فإن لكل طبقة رسوماً ومذاهب تجب مراعاتها عند كتابة الرسائل . وليس أشد إساءة من أن يخلط الكاتب بين الخلفاء وزرائهم أو يخاطب كتابهم بالأسلوب ذاته الذي يخاطب به قوادهم مثلاً .

وقد استغنى ابن المدبر عن ذكر التجار والسوق والعام في رسالته بين طبقات المخاطبين لأن شغالهم بمهمتهم عن ذلك ، وأما بالنسبة للطبقات الأخرى فإن لكل مكتوب إليه قدرًا وزناً ينبغي على الكاتب مراعاته حتى لا يرتكب خطأ فاحشاً ، فقد عابوا الأحوص لأنه خاطب الملوك بمثل قوله :  
وأراك تفعل ما تقول ، وبعضهم مدق الحديث يقول ما لا يَفْعَل

رغم أنه معنى صحيح في المدح بوجه عام ، إذ لا يليق أن يمدح الملك بأنه يَصْدُقُ الحديث وينجز الوعد . صحيح أن صدق الحديث وإنجاز الوعد هو من نزاهة الخلق دون أدنى ريب ، لكنه واجب على كل إنسان ، والملوك لا يُمْدَحُون بالفروض الواجبة بل بالنواقل التي لا يقوم بها سواهم . ترى أيسْعَى مثلاً أن يقال في بعض الملوك إنه لا يزني بحليلة جاره أو إنه لا يخون السر الذي استُوْدِعَه ؟ إن هذه في الواقع صفات تستحق الثناء ، إلا أنها في حق الملوك تبعث على السخرية . لأنها من الواجبات التي ينبغي أن يفعلها كل إنسان ولو كان من أقل الطبقات شأنًا .

## (٥)

ويُنصح ابن المدبر من يرغب في اتخاذ الكتابة مهنة أن يتأكد أولاً من مواتاة طبعه لذلك ، فلكي يكون الإنسان كاتباً ناجحاً لا بد له من استعدادات معينة بل لا بد له من ميل طبيعي . ومن الخطأ إكراه الطبيعة إذا لم تكن مواتية ، إذ لا بد أن يجري الكاتب من البلاغة على عِرق ، أما من كان مرجعه إلى اغتصاب كلام المتقدمين ومعانيهم فليس من صناعة الكتابة في غير ولا نفير .

وَمَنْ يَمْنَ بِحُبِّ الْكِتَابَةِ فَلِيَتَشَكَّ رَغْمَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، لَأْنَ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِيلًا عَامًا إِلَى الْعُجْبِ بِذَاتِهِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَشَدَّدَ فِي تَفْحِصِ كَلَامِهِ ، فَإِنَّ فِي الْبَشَرِ ضَعْفًا وَغَرُورًا ، وَكُلَّ صَاحِبِ كِتَابَةٍ فَإِنَّهُ يَنْظَرُ إِلَى تَأْلِيفِهِ

بعين الوالد الحنون إلى ولده ، والعاشق إلى عشيقه . فإذا كتب رسالة فليعرضنها على البلفاء دون أن ينسبها إلى أحد كى يَرَوا رأيهم فيها وينقدوها ، فإذا وجدت إصفاء عندهم وقبولاً فليس تمر في طريقه .

وإذا أراد أن تجود كتابته فاHarry به أن يرتصد أوقات فراغ قلبه وساعة نشاطه لأن النفس لا تسمح بأجود مكنونها إلا مع الرغبة المفرطة في الشيء أو الغضب المستولى عليها . وليس للكاتب الحق في أن يجري في رسائله على الحرية التي يجري عليها القرآن ، إذ القرآن إنما يخاطب عرباً أصلاً يفهمون عنه بسهولة كلّ ما يرمي إليه ، ومن ثم فإنه قد يحذف كلمات أو جملأ بتمامها ، أما الكاتب الذي يخاطب غالباً قوماً دخلاء على اللغة فعليه أن يتتجنب ، ما وسِعه ، اللفظ المشترك والمعنى الملتبس .

(٦)

ويعلق ابن المديبر أهمية كبيرة على الموصفات المادية للقلم ذاته ، ويقدم لنا بشأنه معلومات لا تكاد تهمنا الآن ، حيث يشتري الناس أداة الكتابة جاهزة تماماً ، ومع ذلك فإنيأشكر ذلك الرجل وكل من تناول مثله هذه المسألة ، من كل قلبي ، على هذه التفاصيل لما فيها من الدلالة النفسية الخفية . ذلك أن القلم إذا كان طبيعياً منساباً فإنه يحفز العقل على نحو مدهش ، ونحن اليوم إنما نؤثر قلماً على آخر لأن الكتابة به أيسر وأبهج . ولقد عيب على أمير الشعراء تغنيه في شعره بمحاسن

ريشة صادق وتحوبله شعره إلى إعلان تجاري<sup>(\*)</sup> ، مع أنه من البساطة  
بمكان أن يكون في يد الكاتب الجيد قلم جيد .

كذلك اهتم ابن المدبر بنوع الورق ، إذ لا بد أن يكون من الصنف  
الممتاز ، أما بالنسبة لأطوال الورقة فقد كان لكل طبقة تقاليدها في هذا  
الصدف ، ولا بد أن تكون الرسالة الديوانية ذات أبعاد محددة تحديداً كما  
في الشعائر الدينية إن صح التعبير . ونحن نعرف جيداً أن هذه التقاليد  
ما زالت مستمرة حتى اليوم . وأخيراً نراه ينصح بتتربيب حبر الرسالة  
من أجل تجفيفها قبل طيّها وألا يسمح الكاتب عن تأريخها أيضاً .

ويوصى ابن المدبر بالصلاحة على النبي ، وهي سنة جميلة ،  
والمعروف أن بنى أمية هم أول من طرح ذلك من رسائلهم ، ثم جرت  
عادة الكتاب عليه . كما يوصى بأن يكون صدر الرسالة دليلاً واضحاً  
على المراد منها ، وما يختتم به فصولها من ألفاظ إيماء إلى ما يراد  
تقريره في نهايتها .

وهو يورد بعض المعلومات الطريفة لمن يريد أن يفضح خاتم  
الكتاب من غير أن يتلفه ، حتى إذا أطلع على ما فيه أعاد ختمه كرها

---

(\*) لعل الإشارة هنا إلى الأستاذ العقاد ، الذي ساط أمير الشعراء ببساطته في كتاب «الديوان في الأدب والنقد» على اتخاذ شعره إعلاناً تجارياً يتغنى بمحاسن ريشة صادق ، مقارناً إياها في هذا السبيل برد يارد كلنخ ، الذي رفع دعوى قضائية ضد إحدى الشركات لاستعمالها بعض شعره على سبيل الإعلان عن منتجاتها - المترجم .

أخرى دون أن يشتبه أحد في فضه (\*). وهذا يرُفنا إلى أى مدى كانت المراسلات الديوانية مهمة منذ ذلك الحين ، وهو ما أعتقد أن القلم السري لا يزال يقوم به في أيامنا هذه ، ولكن بأية إجراءات ؟ إن من غير المجد الإجابة على هذا السؤال ، ولكن فلنطمئن تماماً أن الدبلوماسيين ورجال الحرب يعرفون كيف يؤدون عملهم . ويؤكد مؤلفنا أن مهنة الكتابة مهنة عظيمة ، فكم رفع القلم من إنسان صغير الخطر لئيم الجنس حتى شافه به عنان السماء مجدًا .

(٧)

وهكذا قمنا بجولة سريعة بين فقرات "الرسالة العذراء" ، لكن من الأهمية بمكان أن نرجع إلى الأصل ونقرأه قراءة متعمقة إذا أردنا أن نقدر قيمة هذه التحفة الأدبية التي قدّمت نصّها محققاً مصححاً مع التعليق عليه في الهاشم . والآن سوف أقف عند نقاط التماس التي اكتشفتها بين الأفكار الموجودة في "الرسالة العذراء" ومثيلاتها عند المؤلفين الآخرين الذين تناولوا الموضوع نفسه .

(\*) نص ما جاء في «الرسالة العذراء» في هذا الموضوع هو : « وأما قراءة الكتب المختومة والتلطف لفض خواتيمها فمما لا نذكره خوفاً من سفيه » (ص ٢٨) ، وهذا كل ما هناك - المترجم .

فبالنسبة لـ "الصلوة على النبي" نجد الصولى يتحدث عنها هو أيضاً ، ولكن بينما لا يقول ابن المدبر أكثر من أنها كانت سنة يجرى عليها الكتاب إلى أن ألغاها بنو أمية ، نرى الصولى يشير إلى أن هارون الرشيد قد أعاد العمل بها وأوصى بمراعاتها يبتغي بذلك الأجر من الله<sup>(١)</sup> . أما "البسملة" في أول الرسائل فلم يذكر ابن المدبر عنها شيئاً ، على حين يذكر الصولى<sup>(٢)</sup> وابن درستويه<sup>(٣)</sup> معلومات قيمة في هذا الموضوع . والمعروف أن العرب في القرون الأولى من تاريخ الإسلام كانوا يهتمون أشد الاهتمام بتمجيد اسم الله في أوائل رسائلهم وخطبهم ومؤلفاتهم . وقد عابوا زياد بن أبيه عندما خطب في الناس دون أن يذكر اسم الله أو يحمده ، وسموا خطبته من أجل ذلك : "البتراء" ، بل لقد وضعوا حديثاً يضم كل أمر لم يبدأ باسم الله باته أقطع .

وفي أيامنا هذه فإن أول درس يتلقاه الطلاب في الجامعة الأزهرية يدور عادةً حول هذه المسألة . واللاحظ أن المؤلفين الأزهريين يبدأون كتبهم بالبسملة حتى لو كانت في الحساب أو في الجغرافية . وهذا موجّه ، فيما يبدو ، ضد من كان في قلوبهم رُيغ ولا يحترمون قديم التقاليد . ومن الواضح أن الأمر لا يعود أن يكون مسألة شكلية ، وإن

(١) أدب الكتاب / ٤٠ .

(٢) المرجع السابق / ٣٢-٣١ .

(٣) كتاب الكتاب / ٧٥ .

كانت له مع ذلك قيمة نفسية عميقة . على أنه لا بد من القول إن ذلك التقليد لا يُعمل به إلا في المؤلفات الرضينة ، أما دواوين الشعر فمن غير اللائق إثبات البسمة فيها لأن الشعر ، في نظر الم الدينين المحافظين ، مجرد تسلية لا قيمة لها .

فإذا عُدنا إلى خطبة زياد فإبني أراه مصيّباً غاية الإصابة في عدم تتوبيه إياها بالبسمة لما تنتهي عليه من المودة والرحمة ، على حين أن خطبته كانت حديثاً عنيفاً حمل فيه على أهل البصرة لفسادهم وخروجهم عن النظام العام ، أما البسمة أو الصلاة على النبي فهي إيماءة لطيفة ينبغي استعمالها عند مخاطبة أهل الحلم والروية . وعلى أية حال فإن هذه السنة لا تراعى في أيامنا هذه إلا في أوساط الم الدينين .

(٨)

كذلك تحدث الصولي طويلاً عن الحبر والدواة<sup>(١)</sup> والمواصفات الصحيحة للقراطيس<sup>(٢)</sup> وكيفية بْرِي القلم<sup>(٣)</sup> . وقد توسع في ذلك أفضل مما فعل ابن المدير ، وإن كان مثله في الرأى بأن الكتابة الجيدة لا بد لها من أدوات كتابية جيدة ، بل لقد عقد فصلاً كبيراً للرسائل والأشعار

(٢) المرجع السابق / ١٠٥ .

(١) أدب الكتاب / ١٠١-٩٥ .

(٣) السابق / ٧٠-٦٩ .

التي أَلْفَتْ فِي مَدْحُ الْقَلْمَ . وَكَانَ الْكِتَابُ الْكَبَارُ قَدِيمًا يَنْظَرُونَ إِلَى الْقَلْمَ  
الْجَيْدَ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ هَدِيَةً تُهَدَّى . وَإِنِّي لَا حَسْبَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامُ يَصْدِقُ  
الْيَوْمَ عَلَى أَقْلَامِ الْحِبْرِ أَيْضًا . كَذَلِكَ كَانَ الْقَدِيمَاءُ يَحْكُمُونَ عَلَى الْكِتَابِ  
بِأَنْوَاتِهِمُ الْكَتَابِيَّةِ ، بَلْ لَقَدْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ رِدَاءَ الْخَطِّ مِنْ زَمَانَةِ الْأَدِيبِ<sup>(١)</sup> ،  
وَأَنَّ السَّطَرَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيمًا مُنْتَظَمًا عَلَى نُوْعَ وَاحِدٍ مِنَ الْخَطِّ ،  
أَمَّا إِذَا شَاعَ الاضْطِرَابُ فِيهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِمَثَابَةِ شِعْرٍ مُخْتَلِفِ الْأَعْارِيفِ ،  
وَيَكُونُ شَكَاهُ قَبِيْحًا سَمْجًا<sup>(٢)</sup> . وَمَمَّا يَؤْذِي الْعَيْنَ أَنْ يَقْطُعَ الْكَاتِبُ الْكَلْمَةَ  
بِحَرْفٍ يَفْرَدُهُ عَلَى سَطْرَيْنِ<sup>(٣)</sup> .

وَيَورِدُ أَبْنُ دَرْسَتُوْيِهِ بَعْضُ الْمَعْلُومَاتُ عَنِ الرِّسُومِ الْخَاصَّةِ بِكِتَابَةِ  
عَنْوَانِ الرِّسَائِلِ فِي عَصْرِهِ<sup>(٤)</sup> ، إِذَا كَانَ يَنْبَغِي مُثَلِّاً كِتَابَةً اسْمِ الْكَاتِبِ  
وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ جَمِيعًا ، وَإِذَا كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ أَجْلًا قَدْرًا مِنَ الْكَاتِبِ قُدْمًا  
اسْمُهُ إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا . وَيُذَكَّرُ الصَّوْلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَوْلَى يَكْتُبُونَ الْبَسْمَةَ  
فِي عَنْوَانِ الرِّسَالَةِ ثُمَّ تَرَكُوا ذَلِكَ لَاحِقًا<sup>(٥)</sup> ، وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَانُوا  
يَعْنُونُونَ رِسَائِلَهُمُ بِالشِّعْرِ !

وَيَحْذِرُ أَبْنُ الْمَدِيرِ مِنْ نَقْطِ الْحُرُوفِ وَشَكَلِهَا إِلَّا فِي الْمَوَاضِعِ الْمُلْتَبِسَةِ  
الَّتِي يَعْجَزُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ عَنْ نَطْقِهَا الصَّحِيحَ ، فَعَنْدَئِذٍ يُسْتَخْدَمُ الْإِمْلَاءُ

(١) السَّابِقُ / ٥٢ (زَمَانَةُ الْأَدِيبِ : مَرْضُهُ الْمَزْنَ - الْمُتَرْجِمُ) .

(٢) السَّابِقُ / ٥٤ .

(٥) أَدَبُ الْكِتَابِ / ١٤٤ .

(٤) كِتَابُ الْكِتَابِ / ٩٧ .

المعتاد ، وهو ما يقول مثله الصولي . بل إنه ليؤكد أن من اللازم اطراح النقط والشكل عند الكتابة إلى أحد العظماء تنزيهاً لعلمه وعلو معرفته عن تقييد الحروف ، بخلاف ما لو كتب العظيم إلى من دونه فبان بمستطاعه عندئذ أن ينقط ويشكل زيادة في الإيضاح له ونفي الارتياح عنه . وهناك مع ذلك من يؤثرون إثبات النقط والشكل خشية أن يؤدي العكس إلى وقوع القارئ في الالتباس<sup>(١)</sup> .

ويقول ابن درستويه إن من شأن أهل النحو والشعر والغريب استبقاء الشكل والنقط دائماً ، أما كتاب الدواوين فشأنهم التخفيف وإغفال الشكل والنقط من كل ما وضح ولم يلتبس ، فإذا التبست الكلمة فتقييدها لازم ، وإذا كان الشيء مما تلحن فيه العامة أو تخطى فتقييده مزية بالكاتب .

ومسألة النقط والشكل من المسائل المهمة في نظري . وهي ، كما يعرف الجميع ، أحد الانتقادات التي توجه إلى الحروف العربية ، إذ من الشائع القول بأن الكلمات التي تكتب بهذه الحروف تقبل النطق بعدة طرائق ، ومن ثم يكون لها عدة معان ، وأن الآتراك قد لجأوا في كتابتهم إلى الحروف اللاتينية تجنباً لهذه الصعوبة .

والواقع أن ليس لي علم بمدى النجاح الذي أحرزه الترك في هذا المضمار ، غير أنني أعرف جيداً أن استخدام الحروف اللاتينية في كتابة

---

(١) المرجع السابق / ١٤٦ .

لغتنا سوف تكون له عواقب وخيمة ، إذ لدينا صنفان من الحركات : حركات طويلة هي الألف والواو والياء ، وأخرى قصيرة هي الضمة والكسرة والفتحة ، وهي التي تحدد النبر . وهذه الحركات لا يمكن إدماجها في الألفباء اللاتينية إلا بأشد أنواع المشقة ، وهو ما يجعل الإملاء والنطق في غاية التعقيد .

ولكى نتخلص من هذه المتاعب فمن الأفضل شكل الكلمات دائمًا ، وليس فى ذلك صعوبة تذكر ، ولسوف يصبح الإملاء العربى عند ذاك أسهل من الإملاء اللاتينى وأوفى بالحاجة العملية . ومن المؤسف أن أجدادنا لم يلتزموا إثبات الشكل ، وإن كان لهم مع ذلك عذر فيما فعلوه ، إذ كانوا يكتبون لأناس مثقفين . ومعروف أن الرجل المتعلم لا يلقى صعوبة البتة في قراءة أي نص يخلو من الشكل خلوًّا تاماً . أما اليوم فالامر جدًّا مختلف لأن العربية أصبحت تخاطب حتى الأجانب ، ومن ثم كان من المهم استعمال إملاء "متكملاً" من شأنه تسهيل القراءة والنطق . وهذا الأمر سوف يعجل ، إلى حد بعيد ، بانتشار لغة الضاد في أرجاء المعمورة .

ولأمرٍ ما سُمِّيَ العرب هذه العلامات «شكلاً» ، فما السر يا ترى ؟ إن تلك الكلمة تشير في الأصل إلى الحبل الذي كانوا يقيدون به الحيوان غير المستأنس تمام الاستئناس لكيلا يفر ، ثم استعملت مجازاً في القيد الذي يربط كل كلمة إلى معناها الصحيح . ولسوف يفيد المستشرقون من الاستخدام المنتظم للشكل لأن ذلك من شأنه تيسير المهمة النبيلة التي انتدبوا أنفسهم لها .

وقد تناول ابن درستويه عبارة "سلام عليك" ذاكراً أن ثمة فرقاً دقيقاً بين هذه الصيغة وبين مقلوبتها "عليك سلام" : فالأولى لفتحية الأحياء ، أما الأخرى ففتحية الأموات ، وإن كان الشعراً ، حسبما قال ، أحياناً ما يخلطون بين الصيغتين نزولاً على ضرورات الوزن والقافية .. كما ذكر أيضاً أن النبي عليه السلام هو الذي أمر أتباعه بمراعاة هذه التفرقة .

وكما رأينا فقد تحدث ابن المديري عن الأدعية التي تبدأ بها الرسائل ، وهي مسألة جدّ دقيقة ، ففي الأصل كانت هذه الصيغة الدعائية متقاربة أشد التقارب ، ثم أخذ الناس رغم ذلك يميّزون ، بوجه عام ، بين "أطال الله بقاءك" و "أبقاك الله طويلاً" . ويخبرنا الصولى أنه ينبغي نبذ الصيغة الأولى لأنها من دعاء الزنادقة ، كما يقدم لنا حول هذا الموضوع بعض المعلومات الثمينة للغاية مورداً البراهين على ما يقول حتى من كلام الخلفاء الأولئ وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً ، إلا أن البراهين التي يوردها تفتقر ، في رأيي ، إلى القوة . فالواضح أن الناس في ذلك العصر كانوا لا يستطيعون النظر إلى أي شيء إلا في ضوء الدين ، ومن ثم فما من عبارة ينطق بها الرسول أو أحد الصحابة إلا وتُضْحَى من فورها مقدسة لا تُمسَّ ، مما يؤدي إلى تحجر اللغة وإفقادها القدرة على التطور .

إن من الطبيعي جداً تمسك الناس بالصيغة الدعائية التي تستخدم في الشعائر الدينية المحسنة ، لكنْ ليس من السهل على الاقتناع بأنه ينبغي على سبيل الحتم التمسك بالأقوال التي تصدر عن النبي عليه

السلام في أحاديثه العادلة . ذلك أنه يستحيل في نظرى أن يفكر صلی الله علیه وسلم في إضفاء الطابع المقدس الخاص بال تعاليم الدينية على كل ما يتفوّه به في حياته اليومية . كذلك لا بد من التنبه إلى أن اللغات المتطورة جميعها تعرف مثل هذه الفروق الدقيقة عند استعمالها لهذه العبارة أو تلك ، إلا أن هذه التقاليد إنما تعتمد منطقياً على عبرية اللغة نفسها لا على التقاليد الدينية التي يقوم بتفسيرها أصحاب العقول الضيقة .

والواقع أن البلاغيين الذين قعدوا هذه الدقائق لم يكونوا يستطيعون ، إذا ما جدَّ الجدُّ ، أن يقفوا ضد الاستعمال السائد . ومن ثم نرى ابن المديري مثلاً ينقد قولهم : "جَعَلْتُ فِدَاكَ" ويجعله موضع تهكمه ، إلا أن هذا لم يمنعه من تردیده في مواضع متعددة من شعره<sup>(١)</sup> . وبالمثل نجد الصولى يهجّن قولهم : "أطَالَ اللَّهُ بِقَاءَكَ" مع إقراره في الوقت ذاته أن الناس كلهم يجرؤون عليه<sup>(٢)</sup> . ولكن لماذا لم يستعمل هذا التعبير برضاء وقبول رغم كل شيء ؟ لأن الزناقة هم الذين أحذثوه ؟ لكن ينبغي القول إن هؤلاء الذين يسمّيهم أسلافنا بـ "الزناقة" كانوا من أصحاب الثقافة الرفيعة . أفلم يكن من حقهم إذن ، بل من واجبهم أن يعمّلوا على إغباء لغتهم ؟ الحق أنه لا بد من إعطاء اللغة الفرصة لتطور وترقى ، مع الاكتفاء عندئذ بمعرفة الكاتب الذي أدخل فيها هذا التعبير المحظوظ أو ذاك .

---

(١) الأغاني / ١١٨/١٩ - ١٢١ .

(٢) أدب الكتاب / ١٧٢ .

ويبدو لي أن ما كتبه ابن المدبر والصولي في هذا الموضوع إنما يمثل المراحل الأولى للنقد اللغوي . ولا أظننا بحاجة إلى أن نقول إن تلك الشُّبُّه المدرسية قد بَعْدَ الزمان بها وإن الكتاب العربي اليوم يتمتعون في ممارسة لغتهم بحرية تامة وكاملة .

(١٠)

وقد عالج الصولى موضوع "الخاتم" قائلًا إن عرب الجahiliya لم يكونوا يعرفونه ، إلى أن جاء النبي عليه السلام فكان أول من ختم كتابه من العرب حين علم أن الملوك لا تقبل الكتاب إلا أن يكون مختوماً<sup>(١)</sup> . وفي القرنين الأولى من تاريخ الإسلام كان الرؤساء وحدهم هم الذين يحتمون ختم رقاعهم ، أما كتابتهم فلم يكونوا يفعلون هذا . وعندما كانت الظروف تُسوق أحدهم إلى استخدام الخاتم كان عليه ، من باب التواضع ، أن يثبت اسمه على الجانب الأيسر من الكتاب . كذلك لم يكن عند العرب في البداية ديوان للخاتم ، إلى أن تولى معاوية الخليفة فأنشأ هذا الديوان<sup>(٢)</sup> . وكان الملوك قبله يضعون خواتمهم في خزانة ويفرضون عند الحاجة وزراءهم في استعماله .

---

(١) المرجع السابق / ١٣٩ .

(٢) السابق / ١٤١ .

وتحدث ابن درستويه عن قولهم : «أما بعد» ، إلا أنه اكتفى بتناوله من الناحية النحوية <sup>(١)</sup> . كذلك ناقش الصولى هذه العبارة قائلاً : إن كعب بن لؤيًّا هو أول من قالها <sup>(٢)</sup> . وأيا ما يكن الأمر فإن هذه الصيغة قديمة جداً ، وظلت تُستَعْمل حتى يومنا هذا ، وإن بدأ الكتاب يهجرونها .

وكما رأينا فإن ابن المدبر قد وضع عدة مبادئ تضبط مسألة التاريخ الذي تؤرخ به الرسائل . وكان ابن درستويه أوضح في هذا السبيل <sup>(٣)</sup> ، وبالمثل فقد فصل الصولى القول في ذلك تفصيلاً <sup>(٤)</sup> . وبناءً على ما قدمه الثلاثة من معلومات فإن العرب لم يكونوا يؤرخون أولاً بالأرقام بل من خلال إشارات تاريخية شديدة التعقيد .

ويذكر الصولى أيضاً أن «الألقاب» لم تُضاف إلى أسماء الخلفاء إلا بأخره . ومن المعروف أنها لون من النعوت والصفات كان الخلفاء يلحقونها بأسمائهم . وكان الخطباء يدعون لل الخليفة الحاكم ، لكن دون أن ينعتوه بشيء . وكان محمد الأمين هو أول من دُعِيَ له بذلك ، وجرى الناس على هذا . وكان الكتاب العربي يؤكدون بحق أهمية مهنة الكاتب ، فهو يقبض بيده على كل شيء ، إذ هو الذي يقدر قيمة الخراج والأموال على من تجب عليهم ، لكن البلاغيين لم يهتموا بهذه المسألة ، بل كان

(٢) أدب الكتاب / ٣٦ .

(١) كتاب الكتاب / ٧٦ - ٧٧ .

(٤) أدب الكتاب / ١٧٨ - ١٨٥ .

(٢) كتاب الكتاب / ٧٧ - ٨١ .

شغلهم صياغة القواعد الخاصة بصنعة الكتابة . ومع ذلك فقد وضع الصولى فصلاً رائعاً عن مزايا هذه المهنة وأشنى على القرشيين قائلاً : إن التوراة قد ذكرت أنهم هم الكتبة الحسَبة<sup>(١)</sup> . كما ذكر في فصل آخر المعلومات الحسابية التي كانت معروفة آنذاك مُورِداً بعض الحكايات التي تتعلق بذلك الموضوع<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن العرب القدماء كانوا يكتبون رسائلهم من نسخة واحدة ، ثم كان زيد هو أول من أمر بكتابة عدة نسخ من الرسالة الواحدة حسبما ذكر الصولى<sup>(٣)</sup> .

كذلك لم يكن العرب يعرفون مهنة خبير الخطوط . ويُعدّ سليمان بن وهب أول من قام بشيء في هذا المضمار ، فقد اشتبه ذات يوم في تزوير إحدى الرقاع ، فما كان منه إلا أن أحضر المشتبه فيه وأملأ عليه نص الرقعة المذكورة ، والرجل يجحد أنه صاحبها . وغنى عن القول أنه ، عندما كان يكتب ما يُملئ عليه ، لم يأْل جهداً في تغيير طريقة في كتابة الحروف ، إلا أن سليمان استطاع رغم ذلك أن يكتشف أنه هو صاحب الرقعة . وحين سُئل عن سر ثقته تلك أجاب بأن المزور ، مهما اجتهد في إخفاء طريقة الكتابة ، لا يمكنه أن يغير سجية المعتادة في رسم

(١) المرجع السابق / ٢٨ .

(٢) السابق / ٢٢٨ .

(٣) السابق / ٤٤ .

بعض الحروف التي لم يحترس منها طبعه ، وذلك كافٍ في  
فضح أمره <sup>(١)</sup> .

هذا ، ولا أحسبني بحاجة إلى النص على أن القواعد الخاصة بالكتابة الجيدة التي فرغنا الأن من تحليلها إنما تتعلق بالرسائل الديوانية ، أو بعبارة أخرى : بالخطابات الرسمية . أما بالنسبة للرسائل الإخوانية فليست لها أية قواعد ، بل يستطيع كل إنسان أن يكتب لأخيه كما يحلو له <sup>(٢)</sup> .

وهنا نتوقف عن هذه المقارنة التي طالت بين ما كتبه كل من ابن درستويه والصولي وما كتبه ابن المدير في «الرسالة العذراء» . وإذا أردنا أن نلخص نتائج هذه المقارنة فإننا نقول إن ابن درستويه ينحو في تناول الموضوع منْحًى نحوياً لغويَا ، على حين يهتم الصولي بإيراد المعرف العامة الالزامية للكاتب ، أما «الرسالة العذراء» فتركت على الدقائق الخاصة بالرسوم الفنية والاجتماعية المتعلقة بالرسائل الديوانية .

ويزودنا أحمد بن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» بمادة غاية في الأهمية عن صنعة الكتابة والأساليب المختلفة التي يجري عليها الكتاب . وتمثل المادة التي يقدمها لنا تمثيلاً دقيقاً المعلومات العامة التي كانت

---

(٢) السابق / ٢٢٦ .

(١) نفس المرجع والصفحة .

معروفة في عصره في ذلك المجال ، فبعد حدثه عن أول من وضع الكتابة والخط حسب قوله نراه يذكر الطرائق المختلفة لاستفتاح الكتب وختامها وتاريخها وعنونتها ، كما يسلط الضوء على قيمة الكتابة وأهميتها الاجتماعية مورداً أسماء عدداً من أفضل من شغلوا وظيفة الكاتب لدى الخلفاء الراشدين الأربع وغيرهم من الشخصيات كبيرة ، ليختتم حدثه بعد ذلك بذكر من كانت تلك المهنة سبباً في نباتتهم من بعد خمول .

ويجد القارئ أيضاً في «العقد الفريد» لمحات طريفة عن الصفات الازمة للكاتب . وبالمقابلة أود أن أذكر هنا بسرعة أن كلمة «كاتب» ، حسبما كانت تستخدم آنذاك ، يمكن ترجمتها ترجمة أكثر دقة بالكلمة الفرنسية "Scribe" ، وفي بعض الحالات بـ "Commis aux écri-tures" . ومما تناوله ابن عبد ربه في كتابة أيضاً موضوع البلاغة ، فضلاً عن بعض التفاصيل المادية والأقلام والأحبار التي ينبغي استخدامها . كما تحدث عن «التوقيعات» ، تلك الرسوم المركزية التي تدل على المعنى الكثير باللهجة القليل ، لينهى كلامه في هذا الموضوع بإيراد كثير من الرسائل الديوانية للاستشهاد على ما يقول .

وتعود الصفحات الخمس والخمسون التي خصّصها ابن عبد ربه لصنعة الكتابة بالنسبة لنا اليوم وثائق نفيسة ، إلا أنه من غير المجدى البحث فيها عن أي شيء آخر غير التجميع الذكي للنصوص ، كالأسالة مثلاً .

وحين يذكر كاتبنا أن إسماعيل بن إبراهيم هو أول من وضع الكتابة فإنه لا يفعل شيئاً أكثر من ترديد ما يقوله الآخرون

وبالمثل نراه لا يجشم نفسه مؤنة التدليل على ما يقوله من أن العرب ، عند ظهور الإسلام، لم يكونوا يعرفون الكتابة ، اللهم إلا نحو خمسة عشر شخصاً ، ثم يأخذ في ذكر أسمائهم واحداً واحداً ، وبما أنهم جميعاً قرشيون فإن دعواه لا تصلح لعممها على العرب جميعاً .

والحق أنه لا يمكن التشكيك في أن غالبية العرب آنذاك كانوا أميين . لكن ينبغي أيضاً أن تكون على ذكرٍ من أن المؤرخين المسلمين كانوا يعملون دائمًا على التقليل من شأن الجاهلية كي يُضفوا على الإسلام سمة التحول الباهر وأن يظهوه بحقٍّ على أنه النور الذي بدد الظلمات المترابطة . صحيح أن جزيرة العرب إنما تدين للإسلام بالفضل فيما أحرزته من مجد، لكن لا يصح أن ننسى أن العصر الجاهلي قد عُبُدَ الطريق لذلك الدين ، بل تجمعت فيه المواصفات الالزمة لظهور نهضة حقيقة .

ويبدو ، بناءً على ما ذكره ابن عبد ربه، أنه كانت هناك محاذير يجب على الكاتب مراعاتها، وإنما فقد سمعته الأخلاقية في بعض الأحيان . ويتعجب صاحب «العقد» كيف أن الحسن البصري ، على نبله وفقره وورعه وزهده <sup>(١)</sup> ، قد شغل منصبًا مشابهًا في بعض مراحل حياته ، كما يُبدي الدهشة نفسها بالنسبة للشعبي <sup>(٢)</sup> . ومن المؤكد أن هذه الملاحظة في محلها تماماً ، لكن ما وجه العجب فيها؟ إن مهنة الكاتب

(٢) المرجع السابق / ٢ / ١٠ .

(١) العقد الفريد / ٢ / ٩ .

في الواقع مهنة محفوفة بالغوايات المهلكة ، إذ الكتاب هم الذين يحسبون الأموال ، ومن ثم يتحكمون في أمور الخلق ، وذلك أنه لم تكن لدى العرب قواعد عامة وثابتة لتقدير الأموال التي تُجْبَى ، بل كان كل شيء مرهوناً بارادة الكاتب. ومن هنا نجد المؤلفين القدماء ينصحون الناس باستمرار بأن يكونوا على وفاق مع تلك الشخصيات ذات النفوذ .

على أن هناك شيئاً آخر ، وهو أن الكتاب كانوا مهتمين إذ ذاك بالخلاعة والزندقة ، فدواوينهم هي منبت الضلالات الجامحة ، إذ منها خرجت أشعار المجنون والرسائل الظرفية الساحرة التي تتغنى بالحب والجمال في كل شكل من أشكالهما . وباختصار فكل هجوم على الإسلام وكل مساس بأدابه إنما انطلق من مكاتبهم .

كذلك يخبرنا ابن عبد ربه بالظروف التي تم فيها الانتقال من الرومية إلى العربية في أعمال الحساب ذاكراً أن الذي اقترح هذا على عبد الملك بن مروان هو سليمان بن سعد، وأن قحزماً قد قام بإصلاح مشابه حين قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية .

وتتسم التفاصيل التي يقدمها لنا صاحب "العقد الفريد" عن الفئات المختلفة للكتاب بالطرافة الشديدة أيضاً : فهناك كاتب رسائل، وكاتب خراج ، وكاتب جند ، وكاتب شرطة ، وكاتب قاض وكل وظيفة من هذه الوظائف تستلزم ثقافة خاصة : فكتاب الرسائل مثلاً عليهم أن يلموا تماماً بدقائق اللغة كي يمكنهم الكتابة بالكفاءة نفسها إلى السلاطين والأفراد العاديين على السواء، أما كتاب الخراج فلا يصح أن يجهلوا

الحساب أو الزرع أو كيفية تقدير ثبات الدواب والحلبي ، وأما كتاب الجند فكانوا يعرفون الحساب، على حين كان كتاب الشرطة على علم بفقه الجروح والقصاص والعقول والدييات، كما كان على كتاب القضاة أن يكونوا خبراء في كل الأمور المتعلقة بالحقوق الشرعية ، وبخاصة مسائل المواريث (١) .

فهذا ما تهمنا معرفته بالنسبة للتنظيم الإداري عند العرب في ذلك العصر ، أما الذي كان يميز كل طائفة من الكتاب فلم يتعرض له ابن عبد ربه البطة . ومع ذلك فإننا نعرف من مصادر أخرى أنه لم تكن لهم أزياء موحدة ، لكن الجاحظ قد أخبرنا أن كتاب الجند كان لهم زى خاص ، ومن زيه أن يركبوا الحمير ، وإن كانت الهماليج لهم معرضة (٢) .

(١٢)

ويبقى أن أشير هنا إلى أمرٍ مهم ، وهو أن ابن عبد ربه قد أفاد كثيراً من "الرسالة العذراء" ، ولكن دون أن ينصُّ عليها صراحة .

(١) السابق / ٢ / ١٢ - ١٤ وانتظر أيضاً صبح الأعشى . ١ / ١ / ١٤٢ . ويفسر بعض المؤلفين كلمة الكاتب بمعنى "الموظف في مكتب" ، وبعض آخر مثل مؤلف "سلوك المسالك في تدبیر المالك" يستخدمونها بمعنى الذي كانت تفسر به في فرنسا في القرن السابع عشر، وهو الـ "Commis" مثل كوليير، الذي كان "Commis" في المالية ، ولوثروا في العربية .

(٢) البيان والتبيان / ٢ / ٦٠ . (ومعنى الكلام أنهم يركبون الحمير رغم توفر البغال - المترجم) .

وبحسب كلامه فليس صاحب الفقرات المنتخبة هو إبراهيم بن محمد المدبر ، بل إبراهيم بن محمد الشيباني <sup>(١)</sup> . ويمتاز ما انتخبه ابن عبد ربه بأن فيه شيئاً من التفصيل أكثر ، فمنْ هو إبراهيم الشيباني هذا يا ترى ؟ لقد حاولتُ في العام الماضي أن أعثر على ترجمة له ، غير أنني لم أصل إلى شيء . ومع هذا فلا بد أنه كان يعيش في الجزء الأخير من القرن الثالث الهجري لأنه كثيراً ما يرد ذكره عند الجاحظ حسبما بينا في الملاحظة المرفقة بالنص العربي.

وكما لاحظنا في بداية هذه الدراسة فإن الأدلة القطعية التي تثبت نسبة "الرسالة العذراء" إلى ابن المدبر غير متوفرة ، وإن بعض كلمات في كتاب الصولي هي وحدها التي عرفتنا أنه كان معنِّياً بصنعة الكتابة . وبهذا نخرج بالنتيجة التالية ، وهي أن هناك اسمين يمكن أن يتنازعان على السواء نسبة هذه الرسالة هما ابن المدبر والشيباني ، وكلاهما يُدعى إبراهيم بن محمد ، وهذا أمر يدعو إلى الحيرة دون أدنى شك ، أما الرسالة نفسها فإن العجز عن نسبتها إلى أي منهما لا يقلل من أهميتها في شيء . كل ما هناك أننا نأسى لشابهتها لتلك القصيدة العربية التي أدعى نسبتها سبعون شاعراً لا أكثر .

---

(١) انظر ١١ - ١٢ - ١٩ .

ونحب في النهاية أن نلقى نظرة على ما قاله الجاحظ في هذا الموضوع . وأول ما نذكره هو أن أسلوب ابن المدبر يشبه أسلوب الجاحظ إلى حد كبير ، بل إن في "الرسالة العذراء" فقرات مستعارة من كتابه "البيان والتبيين" ، وبخاصة تلك الفقرات التي يعرف فيها "البلاغة" . وهذه الاستعارة تشرح نفسها بنفسها ، فقد كان كتاب الجاحظ متاحاً لكل إنسان . ثم إن ابن المدبر ، الذي كان صديقاً حميراً له ، لا بد أن يكون قد شعر بميل إلى اقتداء طريقة أو بالأحرى تقليده .

وواقع الأمر أن كتاب الجاحظ يتسم بالطول وعمق الفكرة ، ويستحق أن تُفرد له دراسة خاصة ، ومع ذلك فلسوف نقتصر هنا على مناقشة رأيه في مسألة لم يتعرض لها ابن درستويه أو الصولى أو ابن المدبر ، ألا وهي "السجع" . وسرّ الحاجي على هذه المسألة هو أننى لا أستطيع مشاطرة المسيو مرسيه والدكتور طه حسين ، أستاذى الأدب العربى الكبيرين ، ما يؤكدانه من أن السجع لم يتطور حقاً إلا بدءاً من القرن الرابع الهجرى . فائنا ، على العكس من هذا ، أرى أن السجع عند العرب قديم للغاية ، إذ إن القرآن ، الذى يمكننا من الناحية الأدبية أن نرى فيه أقدم وأصح أثرٍ عربىٍّ فى عصر المبعث المتاخم للعصر الجاهلى ، يمثل بالجمل المسجوعة . كذلك فإن خطب الكهان والرهبان فى الجahلية هى ، بلا مشاححة ، خطبٌ مسجوعة . وإنى لأؤكد أن عادة التزام السجع قد استمرت بعد القرآن ، إذ إن هذا هو الأمر الطبيعي ، فضلاً عن أن بمستطاعنا اقتداء آثار ذلك السجع . ومن رأى المسيو مرسيه أنه لم

يعد يستعمل على عهد بنى أمية . بل لقد قال لى ، ذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٢٩ م ، إن ابن المفعع كان يجهل شيئاً اسمه "سجع" . لكنى بالعكس من ذلك أعتقد أنه كان يعرفه جيداً ، إذ قال هو نفسه إن البلاغة قد تكون سجعاً <sup>(١)</sup> ، بل كان يسجع أيضاً فى بعض الأحيان <sup>(٢)</sup> . وبالمثل كان بشار بن بُرْد معروفاً بكونه سجاعاً .

وينبئنا ابن الأثير أن للقرآن طريقتين فى تحقيق الاعتدال بين مقاطع الكلام هما السجع والموازنة . ومن المعروف أن للموازنة من التأثير على تركيب الكلام مثل ما للسجع نفسه <sup>(٣)</sup> . ويدذكر أبو هلال العسكري أن النبي نفسه كان يسجع ، غير أنه كان يتتجنب السجع إذا رأى أنه يؤدي إلى الالتباس <sup>(٤)</sup> . ويقول فى موضع آخر إن السجع إذا سلم من الاستكراه ازداد حسناً <sup>(٥)</sup> . وفي كتابه الرائع "سر الفصاحة" ، الذى توجد نسخته الخطية فى دار الكتب المصرية ، يدرس ابن خفاجة هذه القضية أعمق ما تكون الدراسة . وفي رأيه أن معظم الكتاب كانوا يستعملون السجع ، كل ما هناك أن بعضهم لا يكاد يخلّ به ، وبعضهم الآخر يستعمله مرة ويرفضه أخرى ، وذلك حسب الظروف <sup>(٦)</sup> . وهو يرى أيضاً أن الفواصل المحمودة هى التى تكون تابعة للمعنى ، وعلى الضد من ذلك الفواصل المذمومة ، وهى التى تكون متكلفة يتبعها المعنى ولا يبغى الكاتب من ورائها سوى الرنين الموسيقى .

(١) انظر "البيان والتبيين" / ١ / ٩١

(٢) المثل الساندر / ١٧٠

(٣) المرجع السابق / ١٠٩

(٤) أدب الكتاب / ٦٨

(٥) الصناعتين / ٢٠١

(٦) المرجع السابق ص / ١٨١ - ١٩٠

ويورد الجاحظ بين الحين والحين شواهد من النثر المسجوع ، ويبدو أنه يرى في هذه الطريقة الكتابية لوناً من الفن الرفيع ، بل إنه قد دافع عن السجع في الكتابات النثرية من وجهاً نظر بلاغية . وكان القصّاص في القرنين الثاني والثالث يسجعون في قصصهم<sup>(١)</sup> . ومعروف أولئك الأدباء المشهورون الذين كانوا يأتون المساجد لإلقاء محاضرات عامة يتناولون فيها جميع الموضوعات، إذ كانت ثقافتهم من السعة بحيث يمكنهم الكلام في التاريخ والأدب والفقه، وكذلك التفسير والحديث . إنني لا أجزم بأنهم كانوا يلتزمون السجع دائمًا أيًّا كان الموضوع الذي يتحدثون فيه، بل أحسب أنهم كانوا يقتفيون خطأ القرآن فيسجعون في الموضوعات الوجданية ويعملون على تحريك القلوب.

ولست أجهل أنه كان هناك من ينفرون من السجع من أجل أن الكهان كانوا يتkenون ويرحكون بالأسجاع ، إلا أن هذا النفور نفسه هو الذي حدا بالجاحظ إلى الدفاع الحار عن ذلك الأسلوب الكتابي مشيراً إلى أن القرآن يستخدم السجع في كثير من الأحيان ، وكذلك النبي عليه السلام .

ولا أحب أن يفوتنى التنبية إلى أن الجاحظ كان يسجع أيضًا<sup>(٢)</sup> ، لكن دون أن يلتزم السجع على الدوام . ولا بد من تكرير القول بأننا

(١) البيان والتبيين / ط ١٩٢٩ م / ٢ / ١٩٢ - ١٩٦ .

(٢) الرسائل / ٥ .

نستطيع أن نجد السجع عند كثير من كتاب القرن الثلاثة الأولى للهجرة ، بل لقد كانت هذه الطريقة منتشرة في كلام الأعراب . أما اليوم فنادرًا ما يقابلنا السجع في كتابات المعاصرين ، وهو رد فعل طبيعي ضد الغلو في استخدامه من بعد القرن الرابع، بل إن الكتاب الآن لينظرون إليه على أنه شيء شديد الابتذال . ومع ذلك فقد نجده عند بعض المؤلفين الذين يتناولون موضوعات عاطفية أو يريدون أن يعطوا لغتهم مذاقاً فنياً ، فعلى سبيل المثال نرى أحمد شوقي وحافظ إبراهيم يسجعان غالباً حتى في نثرهما ، ذلك أنهما شاعران يميلان إلى تزيين كلامهما بما يتميز به السجع من رنين موسيقى .



## زكي مبارك

- ولد في قرية سنتريس (منوفية) عام ١٨٩١ م ، وتوفي في القاهرة عام ١٩٥٢ م .
- التحق بالأزهر الشريف عام ١٩٠٨ م ، ثم بآداب القاهرة ، حيث حصل على الليسانس في اللغة العربية وأدابها عام ١٩٢١ م .
- حصل على ثلات دكتوريات : الأولى من الجامعة المصرية عن « الأخلاق عند الغزالي » عام ١٩٢٤ م ، والثانية من جامعة السربون في موضوع « النثر الفنى في القرن الرابع الهجرى » عام ١٩٣١ ، والثالثة من الجامعة المصرية مرة أخرى عن « التصوف الإسلامي » عام ١٩٣٧ م . ومن هنا جاء تلقيبه بـ « الدكتور » زكي مبارك .
- له بضع عشرات من الكتب في الدراسات الأدبية والنقدية ، ومئات المقالات في الصحف والمجلات المختلفة ، وعدد من الدواوين الشعرية .
- عمل بعض الوقت بالتدريس في الجامعة المصرية ، وكذلك في معهد المعلمين العالى ببغداد عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ م ، وبالجامعة الأمريكية في القاهرة ، كما اشتغل بالتفتيش في وزارة المعارف المصرية .
- وهو من كبار الكتاب وأصحاب الأساليب المتميزة في تاريخ الأدب العربي .

## إبراهيم عوض

- ولد في قرية كُتابة الغابة (غربية) عام ١٩٤٨ م .
- أتم حفظ القرآن الكريم في الثامنة من عمره ، ثم دخل الأزهر الشريف عام ١٩٥٩ م ، حيث حصل على الإعدادية من المعهد الأحمدى بطنطا .
- انتقل بعد ذلك إلى مدرسة الأحمدية الثانوية بالمدينة نفسها ، ومنها إلى جامعة القاهرة التي التحق منها بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية لمدة ثلاثة أيام لغير ، وتركها إلى كلية الآداب - قسم اللغة العربية أدابها ، إذا لم تصادف دراسة السياسة والاقتصاد هو في نفسه ، وقد تخرج من الجامعة عام ١٩٧٠ م .
- أحرز درجة الدكتورية في النقد الأدبي من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢ م .
- له عشرات المؤلفات في مجال الدراسات الأدبية والنقدية والإسلامية ، ومثلها من الدراسات الضوئية على المشبك «الإنترنت» ، وبعض الترجمات من الإنجليزية والفرنسية .
- يعمل حالياً أستاذًا في كلية الآداب - جامعة عين شمس بالقاهرة .

التصحيح اللغوى : صفاء فتحى  
الإشراف الفنى : حسن كامل



يدور الكلام في البحث الذي بين يدي القارئ حول رسالة ابن المديبر الكاتب العباسى المعروف ومواضيعها وأهميتها التاريخية والفنية، وهى الرسالة التى خصصها مؤلفها لما يجب على كتاب الدواوين مراعاته فى تحبيرهم لرسائلهم الرسمية من تقاليد شكلية ومضمونية، ثم يتشعب القول هنا وهناك فى المقارنة بين ما ورد فى تلك الرسالة وما ورد فى المؤلفات المشابهة لها مثل "كتاب الكتاب" لابن درستويه و"أدب الكتاب" للصولى و"الصناعتين" لأبى هلال العسكرى، كل ذلك فى تحليل دقيق وعبارة فرنسية تجمع بين السلasse و الرشاقة ووضوح مما يدل على تمكن المؤلف من موضوعه فكرة وأسلوباً رغم أن اللغة التى أفرغ فيها ليست لغته الأم .